

البلاغة الأسلوبية للأدوات "لما، لولا، كلما" الشرطية غير الجازمة في سورة الإسراء

د.محي الدين بن عمّار

جامعة البليدة 02

Abstract:

There is no doubt that the issue of miracles of the Quran, has mobilized cores Syntactical sand Albulageyen, Fgasoa in the language of the Koran and eloquence discover them Drrh and Nvaish, and identify aspects of likeness, the splendor of Mahaneh rhetorical and stylistic aesthetic, artistic; sparking then what is known as systems theory when Albaqlani and Abdul omnipotent Jorjani More specifically, and was among those methods Quran - which attracted my attention - a method the condition and its provisions, has sophisticated Koran in the filmed and Ttrisah, and subsidiarity provisions and tools, Vazmt - so - exploration subset of molecules this method, the tools conditional non-assertive, and you choose which tool " If, "and that in the verses: the fifth and seventh and fourth per cent of Surat Al-Isra, came to this research is divided into two sections, the foundations; I mean syntactic grammatical meaning, and the second regard the meanings of time rhetoric.

ملخص البحث:

مما لا شك فيه أن قضية إعجاز القرآن الكريم، قد استتفرت ألباب النحويين والبلاغيين، فغاصوا في لغة القرآن وبلاغته يكتشفون منها درره ونفائسه، ويحددون أوجه إعجازه، وروعة مناحيه البلاغية والأسلوبية الجمالية والفنية؛ مما فجر بعد ذلك ما عرف بنظرية النظم عند الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني بصورة أخص، وكان من بين تلك الأساليب القرآنية -التي شدت انتباهي- أسلوب الشرط وأحكامه، وقد تفنن القرآن في تصويره وتطريزه، وتفريع أحكامه وأدواته، فعزمت -بذلك- التتقيب عن جزئية من جزئيات هذا الأسلوب، الأدوات الشرطية غير الجازمة، واخترت منها الأدوات "لما، لولا، كلما"، و ذلك في آيات متعددة، ومواقع متنوعة من سورة الإسراء، فجاء هذا البحث

مقسما إلى مبحثين أساسيين؛ الأول يعنى بالمعاني النحوية الإعرابية، والثاني يختص بالمعاني الزمنية البلاغية.

إشكالية البحث:

يحاول هذا البحث أن يجيب عن الأسئلة التالية -قدر المستطاع- وهي: إذا كان القرآن الكريم معجزا في نظمه وأساليبه، فبماذا تميز عن العرب الفصحاء في استخدام أسلوب الشرط؟ وفي توظيف أدواته؟ سواء في أحكامها النحوية، أو في دلالاتها الشرطية البلاغية، ما داموا قد اشتهروا بالتفنن في هذا الأسلوب وغيره، والدراسات النحوية -قديمها وحديثها- قد استوفته دراسة ومنهجيا وتأليفيا؟ وعلى ماذا اعتمد في تجديد معانيها ودلالاتها؟ هل تدل "إذا" الشرطية على مجرد التعليق المستقبلي في النحو القرآني - كما هو مشهور عند النحاة العرب -؟ أم أن هناك معاني نحوية وبلاغية ابتكرتها الصياغة القرآنية، واستقل بها نظم الآيات في السورة القرآنية الواحدة؟ وما دلالة ذلك على قضية إعجاز القرآن الكريم لغة وأسلوبيا؟.

1. مدخل عام: إعجاز أسلوب الشرط في القرآن الكريم

تميز أسلوب القرآن الكريم بوجوه كثيرة في إعجازه، عسر على العلماء استقصاؤها جميعا، مما دفع السيوطي إلى القول: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»⁽¹⁾ ودفع السكاكي أيضا إلى القول: «اعلم أن إعجاز القرآن الكريم يدرك ولا يمكن وصفه»⁽²⁾

والحقيقة أن لإعجاز القرآن الكريم جانبان: جانب تاريخي، وهو عبارة عن «تلك المقدمات والوقائع الدالة على وقوع التحدي بالقرآن في التاريخ -وبخاصة في زمن النزول-»⁽³⁾، وجانب موضوعي، وهو عبارة عن تلك الوجوه التي صار بها القرآن معجزا، وقد نص كثير من العلماء أن التحدي وقع في نظم القرآن وأسلوبه⁽⁴⁾، ومن بين ما عرف من أساليبه أسلوب الشرط، ولذا استدعت الدراسة الإشارة إلى المفاهيم التالية: الإعجاز الأسلوبى، مفهوم الشرط ودلالته، التعريف بموضوع سورة الإسراء ودروسها، وأغراضها السياقية والزمانية.

1/ الإعجاز الأسلوبى للقرآن الكريم:

إعجاز القرآن - كما يقول الزرقاني⁽⁵⁾ - مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، «فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة»⁽⁶⁾.

فإعجازه قد وقع فيما نبغت به العرب من فصاحة الألفاظ، وبلاغة الكلام، أو ما عبر عنه مصطفى صادق الرافعي بإعجازه «في نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه» (7) وهذا ما يجر إلى الحديث عن مفهوم أسلوب القرآن الكريم:

1- 1- مفهوم الأسلوب: يطلق الأسلوب في اللغة على سطر النخيل، وعلى كل طريق ممتد، وكذلك على الوجه والمذهب، والفنون المختلفة (8).

وأما اصطلاحاً: فيطلق على: «الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه ومفرداته، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك» (9).

1- 2- أسلوب القرآن الكريم: وهو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن أسلوب خاص به (10)، وهو - في ذلك (الأسلوب) - غير المفردات والتراكيب - وإن كان جزءاً منه -، فهو يهتم بالطريقة والصياغة الخاصة للقرآن الكريم لجميع مفرداته وألفاظه وتراكيبه، صياغة محكمة موحدة، كأنها سبحة بديعة رصفت فيها حباتها رصفاً متآلفاً متناسقاً ومتربطاً، فأسلوب القرآن الكريم بهذا متمم بخصائص عديدة، بدءاً من دقة وجمال نظامه الصوتي وانتهاء بجودة سبكه وجودة معانيه ووضوحها وقوتها (11).

2- مفهوم الشرط وبيان دلالاته:

2- 1- التعريف: يطلق الشرط في اللغة على معنيين أساسيين: الأول: علامة الشيء الدالة عليه، وإليه أشار ابن فارس (12) والرازي (13) وغيرهما. والثاني: إلزام الشيء والتزامه بصورة معينة كما أشار إلى ذلك ابن منظور (14).

وأما في الاصطلاح، فقد عرفوه تعريفات كثيرة تتفق أغلبها في أن يقع الشيء لوقوع غيره، أي يتوقف الثاني على الأول، قال أبو البقاء: «الشرط: تعليق حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى» (15)، وعرفه الرضي بأنه «ما يطلب جملتين، يلزم من وجود مضمون أولهما فرضاً حصول مضمون الثانية: فالمضمون الأول مفروض ملزوم، والثاني لازمه» (16).

وشرط صحة التعليق بين الشرط وجوابه أن يكون على ما هو ممكن جائز الوقوع كالقيام والقعود، لا على المستحيل كالجمع بين الضدين، ولا واجب على الوقوع كطلوع الشمس، والعلة في ذلك أن الشرط «مأخوذ من العلامة، وأنه علم على مشروطه، والعلامة لا تكون مستحيلة، ولا يجب أن تكون واجبة، بل جائزة، هذا هو الأصل في الشرط» (17).

وقد يكون الشرط سببا في الجزاء، كقوله تعالى: [وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم] (18)، كما قد يقع لمجرد الدلالة على اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: [وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا] (19)، إذ لا يجوز «أن تكون الدعوة سببا للضلال، ولا مفضية إليه، ولا أن يكون الضلال مفضيا إلى الدعوة» (20).

2- 2- دلالة الشرط: ذهب النحاة إلى أن الشرط يفيد الاستقبال، وإذا كان فعله ماضيا؛ فإن أدواتها تقلب الماضي إلى الاستقبال (21)، ولا يفيد عندهم الماضي، وما ورد من ذلك فهو مؤول.

والصواب كما هو مذهب المحققين (22)، أن الشرط قد يأتي للمضي أيضا، يدل على ذلك الاستعمال الفصيح بما لا يقبل التأويل؛ وذلك إذا كان بلفظ (كان) بعدها فعل ماض، نحو قوله تعالى: [إن كنت قلته فقد علمته] (23)، والمعنى: «أنك تعلم ذلك إذا صدر مني، فإنه لا يخفى عليك شيء» (24)، والنحاة يؤولون ذلك على أنه: إن ثبت أنني كنت قلته، أو إن ثبت في المستقبل أنني قلته في الماضي (25) يعقب على ذلك الدكتور فاضل بقوله: «وهو تأويل بعيد؛ فكيف يقول لربه: إن يثبت في المستقبل؛ وفي خطاب الله عز وجل، وهل الله جاهل ذلك وقت الخطاب حتى يثبت له في المستقبل» (26)، وبعض النحاة يصرح بأنه قليل الاستعمال (27).

وقد يدل الشرط - أيضا - على الحال، بالإضافة إلى المضي والاستقبال، كقوله تعالى: [قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين] (28)

2. أولا: بلاغة المعاني النحوية للأدوات "لما، لولا، كلما" في سورة الإسراء:

إن إعجاز القرآن الكريم في نظمه يعني أن كل كلمات الآية هي في موقعها المكين؛ من حيث مراعاة معاني النحو من فاعلية ومفعولية وابتداء وخبر وغيرها، وأن هذا التعلق والتألف بينها هو الذي يميز النظم القرآني عن سائر النظم الأخرى، ولذلك أكد الجرجاني بقوله: «اعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علما لا يعترضه شك علمت أن لا نظم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض» (29)، وبقوله أيضا: «فهذه الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، هي كما تراها معاني النحو وأحكامه» (30).

فليس الغرض هنا بيان الوجوه الإعرابية للآيات القرآنية التي تضمنت الأداة "إذا" الشرطية غير الجازمة فقط، وإنما -إضافة إلى ذلك- بيان العلاقة الوطيدة بين هذه المعاني النحوية المتنوعة، وتبين كيفية تأسيسها لإعجاز النظم القرآني وجمالياته.

أ. بلاغة المعاني النحوية للأداة "لما": في قوله تعالى: [وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا]. الآية 67.

التوجيه الإعرابي:

"وإذا" الواو عاطفة، "إذا" ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب، "مسكم" فعل ماض والكاف مفعول به، "الضر" فاعل مرفوع، والجملة في محل جر مضاف إليه، "في البحر" جار ومجرور متعلق بحال من الفاعل أو المفعول، "ضل" فعل ماض، "من" موصولة، فاعل، "تدعون" مضارع مرفوع بثبوت النون، و"الواو" فاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة "ضل من..." جواب الشرط "إذا" لا محل لها من الإعراب، إلا استثنائية، "إياه" ضمير منفصل في محل نصب على الاستثناء المتصل أو المنقطع (31)، "فلما" الفاء عاطفة، و"لما" ظرف بمعنى حين تضمن معنى الشرط متعلق بالجواب، "نجاكم" فعل ماض، وفاعله مستتر - هو - والكاف مفعول به، والجملة في محل جر مضاف إليه، "إلى البر" جار ومجرور متعلق بـ "نجاكم"، "أعرضتم" فعل ماض، و"التاء" فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها، "وكان" الواو استئنافية، "كان" فعل ماض ناقص، "الإنسان" اسم كان مرفوع، "كفوراً" خبر كان منصوب، وجملة "كان..." لا محل لها استئنافية (32).

التوجيه البلاغي الإعرابي:

يظهر إعجاز النظم هنا، من خلال توظيف أداتي الشرط "إذا" و"لما" توظيفاً بديعاً، تدل كل واحدة منهما على معناها الشرطي، وترتبط بمعمولاتها ارتباطاً محكماً حسب مواقعهما النحوية في الآية، فجملة "إذا مسكم الضر..." خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجة، وجملة "فلما نجاكم إلى البر..." خبر مستعمل في التعجب والتوبيخ، وأسبقية الأولى على الثانية على مستوى النظم واضحة ولازمة، إذ الأولى مقدمة للثانية، وهذه الأخيرة نتيجة للأولى، ولو حدث تقديم وتأخير لهما أو لمعمولاتهما ومتعلقاتهما لاضطرب النظم، وفسد المعنى، وتأمل كيف استفتح الجملة الأولى بالواو العاطفة الدالة على الترتيب فقط، ثم كيف استفتح الثانية بالفاء العاقبة، إذ الأولى اتسمت بتخصيص الخطاب للمشركون بعدما كان في الآية قبلها عاماً لهم، وللمؤمنين (33)، كما أن الآية الأولى تحدثت عن نعمة التسخير في البحر في حالة السراء، وهذه الآية خصته بحالة الضراء والهلاك، فاحتاج هذا الانتقال إلى الواو الترتيبية، في حين أن التفضل بإنجاء المشركون من الهلاك في البحر قريب عهد بتضرعهم إلى الله إنجاءهم من ذلك، فاحتاج هذا الاتصال إلى الفاء التعقيبية، ثم كيف خص الشرطية "إذا" وأردفها بالفعل الماضي "مسكم" للتبعية أن هذا واقع دائماً للإنسان - الكافر خاصة - ، ثم لماذا عبر بـ "مسكم" ولم يقل "أمسكم" بالإسناد إلى نفسه تعالى، وذلك «تأديبا لنا في مخاطبته بنسبة الخير دون الشر إليه، مع اعتقاد أن الكل من فعله» (34)، وكيف قابل هذا بـ "نجاكم" في جملة "لما" الشرطية بالإسناد إلى نفسه، ثم كيف قابل أيضاً بين قوله

"في البحر" في الجملة الأولى، وبين قوله: "إلى البر" في الجملة الثانية، وسر توظيف "في" في الأولى، و"إلى" في الثانية (35)، ثم سر اختياره جواب الشرط "إذا" باللفظ "ضل" دون: أصبح، أو انقطع وغير ذلك، للإشارة إلى الهيام والهوان الذي وقعوا فيه، ثم تناسبا مع ما يقابله في الجملة الثانية "أعرضتم" للإشارة إلى ضلالهم في إعراضهم عن الله تعالى، ثم لتأمل كيف عدل في الجملة الأولى إلى الموصولية "من تدعون"، في حين أنه نسب الإعراض إليهم بضمير الجمع المخاطب -وكلاهما جوابا شرطا-، إشارة لما تفيدته الصلة -في الجملة الأولى- «من عمل اللسان ليتأتى الإيجاز، أي: من يتكرر دعاؤهم إياهم، كما يدل عليه المضارع... فتعين أن ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم، وهذا إيجاز بديع» (36)، فالأول ضلال المعبود المزيف، والثاني ضلال العابد التائه، ثم أردفه بالاستثناء للتببيه على وحدانية الله وعبوديته وحده -الدعاء-، والاستثناء إما أن يكون متصلا، فيكون من عموم الموصول، «لأن اسم الله مما يجري على ألسنتهم في الدعاء تارة كما تجري أسماء الأصنام» (37)، وقيل أنه «متصل خارج على أصل الباب لا على أنه نصب بـ "تدعون" الذي قد استوفى مفعوله، وهو الذكر المحذوف الراجع إلى الموصول» (38)، ولكن هذا بعيد، وإما أن يكون استثناء منقطعا «لأنه لم يندرج في قوله "من تدعون" إذ المعنى: ضلت آلهتهم وهم لا يعبدون الله» (39)، ورجح هذا الوجه أبو حيان (40) وابن عاشور (41)، فإرداف الاستثناء عقب الصلة أفاد هذه الوجهة النحوية البديعة.

وأخيرا ختم الآية بجملة استئنافية "وكان..." ولكن لها تعلق بكلا الجملتين نظميا، كاعتراض لزيادة التعجب منهم، وبإيثار الفعل الناقص "كان" إشارة إلى استقرار الكفر في جلبة هذا الإنسان، وما دل عليه: وصف كفره وصف مبالغة، فاستحقت هذه الجملة فاصلة الآية.

ب. بلاغة المعاني النحوية للأداة "لولا":

وهي حرف امتناع لوجود، وقد وردت مرة واحدة في سورة الإسراء، وذلك في قوله تعالى: [وَلَوْلَا أَنْ تُبْتَكَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا] الآية 74.

التوجيه الإعرابي:

"ولولا" الواو عاطفة، "لولا" حرف شرط غير جازم، "أن" مصدرية، "تبْتَكَكَ" فعل ماضٍ، ونا "فاعله، والكاف مفعوله، والمصدر المؤول من "أن" والفعل في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف وجوبا تقديره (موجود)، والجملة "لولا أن تبْتَكَكَ..." معطوفة على جملة "كادوا..." لا محل لها، "لقد" اللام واقعة في جواب "لولا"، و"قد" حرف للتوقع أو للتقليل، "كدت" فعل ماض ناقص، والتاء اسمه، "تركن" مضارع مرفوع، وفاعله مستتر -أنت-، والجملة في محل نصب خبر "كاد"، وجملة "كاد ومتعلقاتها" جواب الشرط لا محل لها،

"إليهم" جار ومجرور متعلق بـ "تركن"، "شيئاً" مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر (42)،
"قليلاً" نعت لـ "شيئاً" منصوب (43).

التوجيه البلاغي الإعرابي:

لا يزال النظم القرآني -من خلال هذه الآيات- يمتن على النبي صلى الله عليه وسلم - بعصمة الله إياه من مصائد المشركين، ولذا صدرت هذه الآية بـ "لولا" الدالة على امتناع الإغواء لوجود العصمة، عطفًا على قوله (وإن كادوا ليستفزونك)، وجعل ابن عاشور هذا التصدير استقلالاً عما سبقه، لإضافة «منة أخرى ومقام آخر من مقام الرسول -صلى الله عليه وسلم- تجاه المشركين» (44)، ثم لنتأمل سر اختيار لفظ "التثبت" مع إضافة ضمير المخاطب له إضافة متصل، إشارة إلى عناية الله برسوله وقربه منه، ثم إيقاع جواب هذا الشرط باللام، للدلالة على «تلازمها لجوابها تحقيقاً للربط بينه وبين الشرط» (45)، ثم إضافة الركون -الميل- إلى الناسخ "كاد" للدلالة على وشوك حصل القرب، عطفًا على ما قبله في الآية السابقة (وإذا لاتخذوك خليلاً)، ثم عدوله عن الإفصاح بالمفعول المطلق لـ "تركن" بقوله "شيئاً" «طلباً للخفة؛ لأن الركون فيه ثقل فتركه أفصح» (46)، ثم لم يكتف بذلك، بل أردفها بنعتها (قليلاً)، مع تنكيرهما (شيئاً - قليلاً) لإفادة التقليل، أي لتقليل مقاربة ميل النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم، وما زاد النظم هنا إعجازاً تناسبياً الاستطراد النحوي في الآية اللاحقة، فاستخدم "إذا" جزاء لـ "كدت تركن"، وما أكد ذلك «انفصالها عن العطف، إذ لا مقتضى له» (47)، فالركون غير واقع ولا مقارب الوقوع أصلاً، فلاحظ تناسق أعضاء هذه اللحمة النظمية هنا.

ج. بلاغة المعاني النحوية للأداة "كلما":

وقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: [وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلُّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا] الآية 97.

وسنقتصر في التوجيه الإعرابي على موقع الشرطية "كلما" ومتعلقاتها.

التوجيه الإعرابي:

"كلما" ظرف مبني متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب، "خبث" فعل ماضٍ، والتاء للتأنيث، والفاعل مستتر -هي-، والجملة في محل جر مضاف إليه، ويجوز أن تكون الظرف "كل" و"ما" مصدرية ظرفية وهي وما بعدها في محل جر مضاف إليه، وهما معا في محل نصب حال من جهنم، "زدناهم" فعل ماضٍ، و"نا" فاعله، و"الهاء" مفعوله الأول، والجملة جواب الشرط لا محل لها، "سعيراً" مفعول به ثانٍ منصوب (48).

التوجيه البلاغي الإعرابي:

يظهر ارتباط الشرطية "كلما" بما قبلها من حيث إفادتها زيادة العذاب، فاستحقت هذا الموقع النحوي، ثم أردفها بالفعل الماضي المحقق "خبت" المسند إلى جهنم المتقدم ذكرها قريبا، ومن العجيب أنه أردفها لفظ "الزيادة" مستندا إلى المشتركين لا إلى جهنم "للدلالة على أن ازدياد السعير كان فيهم" (49).

واختار لفظ "السعير" تشنيعا لجهنم، ودلالة على الالتهاب (50)، الذي يمس جلود المشتركين، تناسبا مع لفظ "زدناهم".

ثانيا: بلاغة المعاني البلاغية (السياقية الزمانية) للأدوات الشرطية غير الجازمة.

عرفنا في الفصل الأول أن للأدوات الشرطية غير الجازمة معان كثيرة، أهمها المعاني الزمنية التي تقتضيها، ولضيق المقام فإننا سنقتصر على بيان هذه المعاني الزمانية للأدوات الشرطية غير الجازمة الواردة في سورة الإسراء.

أ - بلاغة المعاني البلاغية (السياقية الزمانية) للأداة الشرطية غير الجازمة "لما": لا اختلاف بين النحاة أن الجانب الزمني للشرطية "لما" ينصرف إلى الماضي الصرف، سواء كان فعل جوابه ماضيا لفظا ومعنى، أو كان مضارعا لفظا لكنه يدل على الماضي (51)، فإذا رجعنا إلى قوله تعالى: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» (52)، تحققنا من سياق الآيات (السباق واللاحق)، ومن الجو العام للسورة، والمتمثل في معالجة نفوس المشتركين تجاه الرسائل السماوية، تحققنا أن زمن الآية مصروف إلى المشتركين المكذبين في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا ما دلت عليه عبارة النحاة المفسرين (53)، ولكن ما لم ينتبه إليه هؤلاء النحاة أن هذه الدلالة الزمنية التي نصوا عليها دلالة غير مستقرة، بل متغيرة حسب السياق والمقام؛ إذ المتأمل لهذه الآية يلاحظ توفر شرطيتين غير جازمتين فيها، "إذا، و"لما"، والشرطية الأولى تدل على الوقوع الحتمي معنويا، والثراء الزمني زمنيا، مما أدى إلى ملاسة "لما" هذه المعاني، وإن كانت باستقلاليتهما تدل على الماضي، فتغيرت بهذا دلالتها الزمنية، لتصبح دالة على الأزمنة الثلاثة (الماضي، الحاضر، المستقبل)، بل ولتصير قانونا يتصل بفطرة الإنسان المجبولة على التوحيد، «فكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعتة أن الأصنام (مادية أو فكرية) لا فعل لها في الشدائد العظام...» (54). وفاصلة الآية دالة عليه: (وكان الإنسان كفورا).

ب. بلاغة المعاني البلاغية (السياقية الزمانية) للأداة الشرطية غير الجازمة "لولا":

يتعين عند النحاة أن يكون زمن عبارتي الشرط والجواب ماضيا كما عرفنا ذلك من قبل (55)، وهذا ما ينطبق فعلا على قوله تعالى: [وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا] (56)، إذ السياق دال على «انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم (المشركين) في تكذيب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم وإعراضهم؛ وهي حال طمعهم في أن يستنزلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن يقول قولا فيه حسن ذكر لآلئهم، ليتنازلوا إلى مصالحتهم وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه» (57).

والزمن هنا -حسب أجواء التنزيل- زمن محدد في العهد المدني، إذ أن هذه الآية -على قول البعض (58)- مدنية التنزيل، دلت على أن هذه الإغراءات ظهرت تستفحل عيانا بعد هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة المنورة، فمقاربة الركون -لو وقعت- اتصلت بزمن دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهؤلاء المشركين، قال أبو حيان: «فمقاربة الركون لم يقع منه -صلى الله عليه وسلم- فضلا عن الركون، والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى له» (59)، وما زاد تأكيدا لهذا أن الآية نفت مقاربة الوقوع «بأربعة أمور: وهي "لولا" الامتناعية، وفعل المقاربة المقتضي أنه ما كان يقع الركون، ولكن يقع الاقتراب منه، والتحقير المستفاد من "شيئا" والتقليل المستفاد من "قليلا"» (60)، ويمكن أن يصير الزمن هنا قانونا عاما -بالنظر إلى عمومية القرآن-، إذ يتضمن «تحذيرا للدعاة من أمتهم -صلى الله عليه وسلم-، وأئمة الفقه والعلم بالدين، من الاستجابة لمطالب الكبراء والقادة السياسيين، في إصدار الفتاوى التي فيها تنازل عن أحكام الله جل جلاله وعظم سلطانه، مهما كانت الذرائع لذلك» (61).

ج. بلاغة المعاني البلاغية (السياقية الزمانية) للأداة الشرطية غير الجازمة "كلما":

تدل معاني "كلما" الزمنية على زمنين اثنين، الحاضر والاستقبال؛ تتطلق من الأول وتتجه إلى الثاني (62)، في حلقة زمنية مكررة لا تنتهي، وبعموم وشمول لا يقيد، هذا ما لاحظناه في قوله تعالى: (كلما خبت زدنهم سعيرا) (63)، فالمعنى -كما قال الألوسي-: «كلما سكن ليهيها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ما تتعلق به النار وتحرقه زدنهم ليهيها وتوقدا، بأن أعدناهم على ما كانوا فاستعرت النار وتوقدت...» (64).

إن الدلالة الزمنية هنا دلالة مكررة لكل زمان، إذ يدل على دوام سعي جهنم في كل الأزمان، «كما تفيده كلمة "كلما" التي هي بمعنى كل زمان... لاقتران ازدياد سعيها

بكل أزمان خبوها» (65)، وفي هذا إشارة وتلميح إلى التهكم بهم، وبأدئ الإطماع المسفر عن خيبة، ويالها من خيبة؛ أن يحكم على الكافر بدوام العذاب وتجده تجددا خالدا.

خلاصة عامة: ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

1. تميز القرآن الكريم وإبداعه في توظيف هذه الأداة وغيرها من الأدوات الأخرى، كل في موقعه المكين من النظم، وعلى حسب العلاقات الوطيدة بين هذه المعاني النحوية، داخل الآية القرآنية، بل إن هذا التماسك النظمي، وأن هذا السبك المحكم قد سرى في كل آيات السورة، ونسج بين خيوطها العريضة نسجا محكما، فإذا هي بعد ذلك -وحدة نظمية واحدة- .
2. كما تمثل -أيضا- هذا الإعجاز القرآني في التنويع والثراء الزمني لهذه الأداة الشرطية، غير مقتصر على زمن واحد (الاستقبال) كما جزم به النحاة، هذا التنوع الزمني لابسه أيضا تنوع ثري في المعاني والأغراض البلاغية التي صاحبت هذه الأدوات في منحني تصاعدي مستمر، يجمع بين طلاقة الزمان، وعمق معالجة نفس الإنسان، وتنوع الأساليب البلاغية من حذف وإضمار وإيجاز ووصل وعطف وغيرها، بنمط أسلوبى فريد من نوعه، ومتسم بدرجات عالية من الجزالة والفصاحة غير متفاوتة، خلبت ألباب النحاة واللغويين.
3. أن الأدوات الشرطية -عموما- لا تحدد زمن الفعل تحديدا ما، فقد يدل الفعل معها على المضي وهو مضارع، وقد يبقى على مضيه، وقد يصرف إلى الاستقبال، كل ذلك يتحقق وفق السياق اللغوي والاجتماعي (66)، الذي يرد فيه هذا التركيب، أما أن هذا التركيب الشرطي خاو من الزمان؛ لأن أفعالها خالية من الأحداث، فاستنتاج خارج عن نطاق اللغة وبعيد عن طبيعتها؛ إذ دل على خلاف ذلك وضوح التأثيرات الزمنية لأداة الشرط في تنوع الزمن داخل الجملة الشرطية (67).
4. من النتائج المهمة هنا أن دراسة أزمنة هذه الأدوات أفعالها في القرآن الكريم هي دراسة وظيفية دلالية، لا تكتفي بالفعل وحده، أو بالأداة التي تسبقه أو تلحقه، بل تعتمد في المقام الأول على الملابس والسياق الذي يتحرك فيهما الفعل والجملة الشرطية عموما، ولهذا انتبه بعض المفسرين، وجاءت دراستهم التفسيرية -تبعا لذلك- شاملة، ودقيقة، وممتعة، محاولة بذلك الكشف عن إعجاز القرآن الكريم وجمالياته على المستوى النظمي، وهذا ما برع فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتوير".

5. من أهم الملاحظات التي نختم بها هذا البحث ، ضرورة الوصل بين علوم اللغة المختلفة في دراسة قضية لغوية معينة ، بين البلاغة والنحو وعلم البيان ، هذا من جهة ، ثم وصلها وتطبيقها على آي القرآن الكريم -مستودع الإعجاز البلاغي والنحوي- وبيانها في دراسات مستفيضة ومتكاملة ، فيما يعرف عند أهل الاختصاص بالدراسات البيانية ، فهي مهمة جدا في الدرس اللغوي ، وفي التعليم الجامعي.

الهوامش:

- ¹ (معتز الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ت. علي البجاوي، دار الفكر العربي، 3/1.
- ² مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف السكاكي، ت. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، ص526.
- ³ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم، ط2، ص 145.
- ⁴ كالباقلائي والجاحظ والخطابي وعبد القاهر الجرجاني وخلق كثير.
- ⁵ مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، ط. دار الحديث، 277/2.
- ⁶ مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: محمود شاكر، ط. دار الفكر، ص 18.
- ⁷ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة الكتب الثقافية، ص 128.
- ⁸ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ط، دار صادر، 473/1، مادة (سلب).
- ⁹ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص/253.
- ¹⁰ المرجع نفسه.
- ¹¹ ينظر في ذلك: مناهل العرفان للزرقاني، المرجع نفسه، 258/2 - 276.
- ¹² معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ت. عبد السلام هارون، 260/3.
- ¹³ مختار الصحاح: محمد الرازي، ط. دار الفكر، مادة (ش ر ط)، ص 294.
- ¹⁴ لسان العرب: ابن منظور، مادة (ع ه د)، 312/3.
- ¹⁵ الكليات: أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، ص 255.
- ¹⁶ شرح الكافية لابن الحاجب: الرضي الاسترابادي، دار الكتب العلمية، 108/2.
- ¹⁷ الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية: سليمان الطويفي، ت. محمد الفاضل، مكتبة العبيكان، الرياض، ص 532.
- ¹⁸ سورة محمد، الآية 36

- ¹⁹ سورة الكهف، الآية 57.
- ²⁰ معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، ط. دار الفكر، 55/4.
- ²¹ حاشية الخضري مع شرح ابن عقيل، دار الفكر، 122/2.
- ²² معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، مرجع سابق، 64/4.
- ²³ سورة المائدة، الآية 116.
- ²⁴ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفجر للتراث، ط1، 180/2.
- ²⁵ ينظر: حاشية الخضري، مرجع سابق، 122/2.
- ²⁶ معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، 64/4.
- ²⁷ شرح الكافية، الرضي الاستراباذي، 293/2.
- ²⁸ سورة البقرة، الآية: 93.
- ²⁹ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ت. محمود شاكر، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص 55.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص 87.
- ³¹ المسألة فيها خلاف بين النحاة، ينظر: البحر المحيط: أبو حيان، 60/6. روح المعاني: الألوسي، 109/8، التحرير والتنوير: ابن عاشور، 128/14.
- ³² إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان وآخرون، 1269/2.
- ³³ ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية، 332/10.
- ³⁴ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، 406/4.
- ³⁵ عدي ب "إلى" لتضمنين "نجاكم" معنى "أبلغكم وأوصلكم"، تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 127/14.
- ³⁶ المصدر نفسه، 127/14.
- ³⁷ المصدر نفسه.
- ³⁸ الفريد في إعراب القرآن المجيد: الهذاني، 282/2.
- ³⁹ روح المعاني: شهاب الدين الألوسي، 109/8.
- ⁴⁰ البحر المحيط: أبو حيان، 60/6.
- ⁴¹ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 127/14.
- ⁴² وجهها هنا الألوسي بالنصب على المصدرية مباشرة تقديره (شيئاً يسيراً)، وهو قريب من التوجيه الأول، روح المعاني: الألوسي، 123/8.
- ⁴³ إعراب القرآن: عبد الله علوان وآخرون، 1272/2 - 1273.
- ⁴⁴ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 138/14.
- ⁴⁵ المصدر نفسه.

- ⁴⁶ المصدر نفسه 139/14.
- ⁴⁷ المصدر نفسه.
- ⁴⁸ إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان وآخرون، 1283/3.
- ⁴⁹ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 171/14.
- ⁵⁰ ينظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، مادة "سعى"، ص 238.
- ⁵¹ يراجع: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي: علي توفيق الحمد وآخر، دار الأمل، الأردن، ط2، 1993م، ص287، وكتاب: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، دت، ج2، ص623.
- ⁵² سورة الإسراء، الآية 67.
- ⁵³ ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، 60/6، روح المعاني: الألوسي، 109/8، التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 127/14، وغيرهم.
- ⁵⁴ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية، 332/10.
- ⁵⁵ ينظر: مغني اللبيب: ابن هشام، 272/1، أمالي ابن الشجري: العلوي، مكتبة الخانجي، 297/2.
- ⁵⁶ سورة الإسراء، الآية 74.
- ⁵⁷ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 135/14.
- ⁵⁸ معارج التفكير ودقائق التدبر، الميداني، 696/9.
- ⁵⁹ البحر المحيط: أبو حيان، 65/6.
- ⁶⁰ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 139/14.
- ⁶¹ معارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني، 697/9.
- ⁶² يراجع: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي: علي توفيق الحمد وآخر، مرجع سابق، ص251، وكتاب: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، دت، ج2، ص376.
- ⁶³ سورة الإسراء، الآية 97.
- ⁶⁴ روح المعاني: الألوسي، 167/8.
- ⁶⁵ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 171/14.
- ⁶⁶ للاستزادة يراجع: منهج السياق في فهم النص: عبد الرحمن بودرع، ط. كتاب الأمة، ص 41 وما بعدها.
- ⁶⁷ الزمن في القرآن الكريم، بكري عبد الكريم، ص 296.

